

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

مُوسَى بْنُ بَصْبِئٍ

عبد الحميد جودة السحار

حاصر مُغيث ، الذى بعثه طارقٌ يستولى على
قُرْطَبَة ، الكنيسة التى تحصَّن بها الملك ، ثم قطع الماء
عنها ، فاستسلم المتحصنون فيها ، وفرَّ الملك .

وبلغ خبره إلى مُغيث ، فبادر الرُّكُضَ خلفه
وحده ، فلحقه وتحتَه فرسٌ أصفر ، سريعُ الخطو .
فالتفت الملك ، ودُهِشَ لِمَا رَأَى مُغيثاً قد لحقه ،
وزاد فى حثِّ فرسه ، فقصرَّ به ، فسقط الملك عن
الفرس ، فترجَّل مُغيثٌ عن فرسه ، وقبضَ على
الملك الذى كان يترنَّحُ من السَّقْطَةِ ، وسلبه سلاحه
وعادَ به أسيراً ، وحبسَه عنده ، ليقدِّمَ به على أميرِ
المؤمنين ، الوليدِ بن عبدِ الملك .

مضى جيشُ المسلمين إلى تَدْمِير ، وكانت مدينةً
حصينة ، وكان مَلِكُها داهية ، ودافع عن مدينتِهِ
دفاعَ الأبطال ، فلَمَّا وَجَدَ أن الهزيمة ستلحقُ به ،
انسحبَ مع يسيرٍ من أصحابِهِ لا يُغنون شيئاً ،
انسحبَ إلى « أَرْيُوله » ، وراحَ يَتَحَصَّنُ بها ، فلم
يجدْ بها إلا قليلاً من الرِّجال ، فأمرَ النَّساءَ بنشرِ
الشُّعور ، وَحَمَلَ الْقَصَبِ ، وَالظُّهُورِ عَلَى السُّورِ فِي
زِيِّ الْقِتَالِ ، متشبهاتٍ بِالرِّجالِ ؛ وَتَصَدَّرَ قُدَّامَهُنَّ
فِي بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ ، يُغَالِطُ الْمُسْلِمِينَ فِي قُوَّتِهِ عَلَى
الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ . فَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالَهُ ، وَعَرَضُوا
عَلَيْهِ الصُّلْحَ ، فَأَظْهَرَ الْمِيلَ إِلَيْهِ ، وَنَكَرَ زِيَّهَ ، وَنَزَلَ

إليهم بأمان ، على أنه الرسول ، فصالحهم على أهل
بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم فلما تم له من
ذلك ما أراد ، قال لهم :

- أنا الملك .

فقال بعض المسلمين :

- ولماذا فعلت ذلك ؟

قال : « للإبقاء على قومي » .

وثار بعض المسلمين ، فقال لهم :

- لم نعد نخشى منكم شيئاً ، لقد عاهدتم ، وإننا

نعلم أنكم توفون بعهودكم .

وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال

والذرية ، فقدموا على ما أعطوه من الأمان ،

ولكنهم أعجبوا برجاحة عقله ، ولم ينكثوا وعدهم

له ، فسلمت عاصمةُ تدميرُ من شدةِ وطأةِ القتال ،
بفضلِ دهاءِ حاكمِها .

٣

انتهى طارقٌ إلى طليطلة ، عاصمةِ القوط ، فألفاها
خالية ، وقد فرَّ عنها أهلُها ، ولجئوا إلى مدينةٍ بها
خلفَ الجبل ، فمضى خائفٌ من فرَّ من أهلِ طليطلة ،
فاقتحمَ المدينةَ التي تحصَّنوا فيها ، فأصابَ حليًا
ومالا ، وامتلاتْ نفسُ طارقٍ غبطةً ، فراح يترنم
بالشعر ، قال :

رَكِبْنَا سَعِينًا بِالْمَجَازِ مُقَرَّرًا
نَمْسِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مِنَّا قَدْ اشْتَرَى
نَفُوسَنَا وَأَمْوَالَنَا وَأَهْلًا بِجَنَّةٍ
إِذَا مَا اشْتَهَيْنَا الشَّيْءَ فِيهَا تيسَّرَا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا
وأقبل على طارق أولاد غيطشة ، الذين اغتصب
لذريق منهم الملك بعد موت أبيهم ، وسألوه الأمان ،
ثم قالوا له :

- أنت أمير نفسك ، أم فوقك أمير ؟
قال : « بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأمير
أمير عظيم » .

وسألوه عنهما ؟ قال لهما :
- موسى بن نصير ، وأمير المؤمنين الوليد
ابن عبد الملك .

فاستأذنوه فى اللحاق بموسى بن نصير بإفريقية ،
ليؤكّدوا ولائهم له ، وسألوا طارقا الكتابة إليه

بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، فقبل ،
وساروا نحو موسى .

٤

بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد ،
وتوغلّه في الأندلس ، فغضب ؛ فطارق يسير
بالمسلمين في بلادٍ يُحيطُ بها الأعداءُ من كلِّ
جانب ، فماذا يفعلُ لو اتَّحدَ الملوكُ المتنابدون ،
وأطبقوا عليه ، وقطعوا على المسلمين خطَّ الرجعة ؟
رأى أن يتهيأ للمسير ، وأن يسلكَ طريقاً آخر ، غيرَ
الطريق الذي سلكه طارق ، ليؤمنَ جناحه ، وحتى
تضيعَ فرصةُ الأعداءِ في الإطباقِ على جيشِ طارق ،
الذي امتدَّتْ خطوطُه ورقَّتْ ، حتى أصبحَ اختراقُها
أمراً ميسوراً ، لو أُطبقَ عليها من الشمالِ ومن
الجنوبِ .

تقدّم موسى واحتلّ الجبل ، الذى أطلق اسمه عليه ، وفى ذلك الوقت تلقاه أبناء غيطشة ، وعرفوه بشأنهم ، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشّام بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم .

واحتلّ الجزيرة الخضراء ، وسار معه أدلاء يليان ، يدلّونه على الطريق ، حتّى بلغ مدينة قرمونة ، وليس بالأندلس أحصن منها ، فاجتمع بأصحاب يليان يرسم معهم خطة الاستيلاء على المدينة ، قال لهم : - تظاهروا فى الليل أنكم فارّون من وجهى ، فيفتحوا لكم أبواب الحصن ، فاقبضوا على الحراس ، وافتحوا لنا الأبواب .

وفى الليل تظاهر أصحاب يليان أنهم فارّون من

أمام جيوش المسلمين ، وطَرَقَهُمُ موسى بخيله ، وفتح
الحُرَّاسُ لَهُمُ الأبواب ، لِيَحْمُوَهُمُ مِنَ الْغَزَاةِ ، ثُمَّ
أَغْلَقُوهَا فِي وَجْهِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُمْ فُوجِئُوا
بَانْقِضَاضِ أَصْحَابِ يُلْيَانَ عَلَيْهِمُ ، وَفَتْحِ الْأَبْوَابِ ،
فَتَدَفَّقَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَدَفَّقَ السَّيْلُ ، يَجْمَعُونَ
كُلَّ مَا يَقَعُ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ .

وَتَقَدَّمَ نَحْوُ إِشْبِيلِيَّةَ ، فَإِذَا بِهَا تَجَرُّ صَرِيعةً تَحْتَ
قَدَمَيْهِ ، وَمَضَى مِنْ نَصْرِ إِلَى نَصْرٍ ، حَتَّى إِذَا مَا بَلَغَ
مَدِينَةَ مَارِدَةَ ، وَكَانَتْ ذَاتَ عِزٍّ وَمَنْعَةٍ ، وَفِيهَا آثَارُ
وَقُصُورٍ ، وَمَصَانِعٍ وَكُنَائِسٍ جَلِيلَةٍ الْقَدْرِ أَلْفَى أَهْلِهَا
قَدْ تَحَصَّنُوا ، كَانَ فِي أَهْلِهَا مَنْعَةٌ شَدِيدَةٌ ، وَبَأْسٌ
عَظِيمٌ ، فَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ دَفْعَاتٍ وَآذَوْهُمْ ، وَعَمِلَ
مُوسَى دَبَّابَةً ، وَكَانَتْ تُتَّخَذُ مِنْ جُلُودٍ وَخَشَبٍ

للحُرُوب ، يَدْخُلُ فِيهَا الرِّجَالُ ، فَتُدْفَعُ فِي أَصْلِ
الْحِصْنِ فَيَنْقُبُونَهُ ، وَهُمْ فِي جُوفِهَا وَهِيَ تَقِيهِمْ
مَا يَرْمُونَ بِهِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَدَبَّ الْمُسْلِمُونَ تَحْتَهَا إِلَى
بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِ سُورِ الْمَدِينَةِ ، جَعَلُوا يَنْقُبُونَهُ ، فَلَمَّا
قَلَعُوا الصَّخْرَ ، ثَارَ بِهِمُ الْعَدُوُّ عَلَى غَفَلَةٍ ، فَاسْتَشْهَدَ
بَأَيْدِيهِمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ تِلْكَ الدَّبَّابَةِ ، فَسُمِّيَ
ذَلِكَ الْمَوْضِعُ « بَرْجَ الشَّهَدَاءِ » .

وَمَالَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَى السَّلَامِ ، فَبَعَثُوا رُسُلَهُمْ إِلَى
مُوسَى ، فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ ، وَأُذِنَ لَهُمْ بِالْدُّخُولِ ،
نَظَرُوا إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ ، قَدْ زَالَ
عَنْهُ خَضَابُهُ ؛ وَأَخَذُوا يُفَاوِضُونَهُ ، فَلَمْ يَنْتَهُوا إِلَى
رَأْيٍ ، فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ .

وَبَعْدَ أَيَّامٍ رَأَوْا أَنْ يُفَاوِضُوهُ ثَانِيَةً ، فَجَاءُوا إِلَيْهِ ،

فإذا هو قد حمّر لحيته بالحِناء ، فعجبوا من ذلك ،
وأخذوا يُفاوضونه ، ولم ينتهوا إلى رأى ، فانصرفوا .
وعاودوه بعد ذلك ، فإذا هو قد سودّ لحيته ،
فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب
ولا استعماله ، فلما عادوا إلى قومهم ، قالوا لهم :
— إنا نقاتلُ أنبياء ، يتخلّقون كيف شاءوا ،
ويتصوِّرون في كلّ صورةٍ أحبوا ، كان ملكهم
شيخا ، فقد صارَ شابا ؛ والرأى أن نقاربَه ، ونعطيه
ما يسأله ، فما لنا به طاقة .

فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحتهم مع موسى ،
على أن أموال القتلى وأموال الهاربين إلى جليقة ،
وأموال الكنائس وحليّتها للمسلمين . ثم فتحوا له
المدينة يومَ الفِطر ، سنة أربع وتسعين من هجرة

الرسول الكريم ، فكان ذلك اليوم أبهج عيد .

٥

ثار أهل أشبيلية على المسلمين بها ، فقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، وأتى فلهم الأمير موسى وهو بماردة ، فلما أن فتحها ، وجه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ، فأعاد فتح إشبيلية ، وقتل أهلها . وأقام عبد العزيز بأشبيلية ، وتوجه الأمير موسى يريد طليطلة .

وبلغ طارقاً خبر وفود موسى ، فخرج إليه يستقبله في وجوه الناس ، فلما وقعت عين طارق على موسى ، نزل إليه إعظاماً له ، فوبّخه على استبداده ، وعلى توغّله بالمسلمين في بلاد الأعداء ،

دونَ رأيهِ ، وساروا إلى طليطلة ، فطالبه موسى بأداء ما
عنده من مالِ الفَيءِ وذخائرِ الملوك ، فأتاه طارقٌ بها .
كان موسى أميراً عظيماً ، وكان طارقٌ قائداً
عظيماً ، فسرعان ما انقشع غضبُ موسى ،
واصطلحَ مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقرَّ
مُقدِّمته ، وأمره بالتقدُّمِ أمامه في أصحابه ، وسار
موسى خلفه في جيوشه ، وأوغلا في البلاد ،
لا يُمرَّانِ بموضعٍ إلَّا فتَحَ عليهما ، وقد ألقى اللهُ
الرُّعبَ في قلوبِ أهلِ البلاد ، فلم يعارضهما أحدٌ
إلَّا بطلبِ صلح .

وظهرَ المسلمونَ في تقدُّمِهِم ، حتَّى بلغوا فرنسا ،
وانتهوا إلى وادي دُوردوني ، ووصلوا إلى أربونة ،
فارتاع شارلُ مارتلُ ملكُ فرنسا ، وانزعج لدُنُوهِم

من ملكه ، فحشدَ لهم ، وخرج عليهم في جمعٍ
عظيم ، فلما دنا من حصن لُودون ، وعلمتِ العربُ
بكثرةِ جموعه ، زالتْ عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى
إلى صخرةِ إينيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر
المسلمون قُدَّامه ، فيما بين الأَجْبَلِ القريبةِ لمدينةِ
أربونة ، وهم في غفلة ، لا عُيُونَ لهم ولا طلائع ،
فما شعروا حتى أحاط بهم شارلُ مارتِل ، فقاتلوا
قتالاً شديداً ، واستشهد فيه جماعةٌ منهم ، وحمل
كثيرٌ منهم على صفوفه ، فاخترقوها ، ودخلوا
المدينة ، ولاذوا بخصونها ، فنازلهم بها أياماً ، أصيبَ
له فيها رجال ، وتعذر عليه المُقام .

وتيقن شارلُ مارتِل أن مددَ المسلمين سَرعان
ما يهبُ لنصرةِ إخوانهم ، فدبَّ الدُّعْرُ في قلبه ،

وانسحب إلى فرنسا ، وقد راح يُقيمُ الحصونَ في وجهِ المسلمين .

وجمع موسى بن نصيرَ الجموع ، وخرج على باب الأندلس ، الذى فى الجبلِ الحاجزِ بينها وبينَ فرنسا ، فاجتمعت الإفرنجُ إلى شارل مارتل ، وقالوا له :

- ما هذا الخزيُّ الباقي فى الأعقاب (الذريّة) ؟
كنا نسمعُ بالعرب ونخافُهم من جهةِ مطلعِ الشمس ،
حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلادِ الأندلس ،
وعظيم ما فيها من العُدَّةِ والعَدَد ، بجمعِهِم القليل ،
وقلةِ عُدَّتِهِم ، وكونِهِم لا ذروعَ لهم .

فقال شارل مارتل : « الرأى عِندى ألاَّ
تُعَرِّضوهم فى خَرَجَتِهِم هذه ، فإنَّهم كالسَّيْلِ يَحْمِلُ
من يُصادِرُهُ ، وهم فى أقبالِ أمرِهِم ، ولهم نِيَّاتٌ

تُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ الْعَدَدِ ، وَقُلُوبُ تُغْنِي عَنْ حَصَانَةِ
الدُّرُوعِ ، وَلَكِنْ أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى تَمْتَلِئَ أَيْدِيهِمْ مِنَ
الْغَنَائِمِ ، وَيَتَّخِذُوا الْمَسَاكِينَ ، وَيَتَنَافَسُوا فِي الرِّيَاسَةِ ،
وَيَسْتَعِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَحِينَئِذٍ تَتِمَكَّنُونَ مِنْهُمْ
بِأَيْسَرِ أَمْرٍ .

وَانْتَظَرَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ جِيُوشَ شَارْلٍ مَارْتِلَ ،
وَلَكِنْ شَارْلَ آثَرَ أَنْ يَتَرَيَّثَ ، فَعَادَ مُوسَى لِيَفْتَحَ
مَا بَقِيَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، شَاخِحًا بِمَجْدِهِ ، مُسْرُورًا بِمَا
آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَتْحٍ مُبِينٍ .